

الحاجة إلى الإجراءات التأويلية في الخطاب الصوفي

دراسة تطبيقية على أبيات شعرية لابن عربي

The need for recital procedures in the mystic speech

An applied study on the poetic verses of Ibn Arabi

الإسم الكامل للمؤلف الرابع	الإسم الكامل للمؤلف الثالث	الإسم الكامل للمؤلف الثاني مجناح جمال	الإسم الكامل للمؤلف الأول
مؤسسة الانتماء (البلد) البريد الالكتروني	مؤسسة الانتماء (البلد) البريد الالكتروني	جامعة المسيلة - الجزائر البريد الالكتروني djamel.medjenah@univ- msila.dz	جامعة المسيلة - الجزائر البريد الالكتروني <a href="mailto:asya.saoudi@univ-
msila.dz">asya.saoudi@univ- msila.dz

ملخص: (لا يتجاوز 10 اسطر)	معلومات المقال
لقد اهتدى النقد الأدبي الحديث إلى المنهج التأويلي الذي نعتقد أنه يعطي للنص أبعادا لانهائية، ذلك أن كل متلق - حسب نظريات التلقي- يضيف بعدا جديدا و يغنيه بطريقة ما ، و هنا يمكن أن نشير إلى سيرورة المعنى و توالدها و التعقيم الدلالي الذي يميز الخطاب الصوفي جعله على درجة عالية من الغموض مما يتطلب توفر جملة من المعارف و الإجراءات لفك شيفراته ، و قد جاء هذا البحث للنظر إلى قدرة المتلقي على فهم نظام التشفير في الخطاب الصوفي والبحث عن الإجراءات التي ينبغي عليه القيام بها إزاء مأزق تلقي الخطاب الصوفي، كذا محاولة معرفة الدوافع الحقيقية لاعتماد الصوفيين على اللغة الترميزية ، وقد تم التوصل من خلال هذا البحث إلى جملة من النتائج أهمها أن النشاط التأويلي يعتبر ضرورة في الخطاب الصوفي ، و كذا فإن تأويل المعاني الضمنية فيه يعتمد اعتمادا تاما على الجهد التأويلي للمتلقي.	تاريخ الارسال: 2021/...../..... تاريخ القبول: 2021/..../...
	الكلمات المفتاحية:

	<p>✓ تأويل – خطاب - تصوف – تلقي – تشفير.:</p>
<i>Abstract : (not more than 10 Lines)</i>	<i>Article info</i>
<p><i>The modern literary criticism was guided to the recital method which we believe gives the text infinite definitions. So that each recipient- according to receptivity theories- adds a new dimension and enriches it in some way. Here we can point to the development of meaning and its reproduction, The meaning as a signifier has an indicative.</i></p> <p><i>The semantic blackout that characterizes the mystic speech has put it in a high degree of ambiguity which demands the availability of a lump of knowledges and procedures to unlock its codes. This research was made to look into the recipient's ability to understand the coding system in the mystic speech and search for the procedures that the recipient should do towards the predicament of receiving the mystic speech, and to gather the knowledge of true motives as to why the mystics rely on coded language.</i></p> <p><i>A sum of results were reached through this research of which the most important is that the recital activity is considered a necessity in the mystic spec. Thus the recital of implicit meanings in the mystic speech depends entirely on the recital effort of the recipie</i></p>	<p>Received/...../2021</p> <p>Accepted/...../2021</p>
	<p><u>Keywords:</u> interpretation, Speech ,mysticism, receive, encrypt.</p>

. مقدمة:

مقدمة: يلجأ الصوفي في لغته و خاصة الشعرية منها إلى الرمز و التلميح و الإشارات، إذ يصعب عليه إشراك من هم من غير الصوفية في شعوره هذا و قد ذكر ابن عربي أنه ليس في مستطاع أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم، و غاية ما في هذا المستطاع هو الرمز إلى تلك الظواهر التي بدؤوا في ممارستها؛ فالأدب الصوفي يتجه اتجاها رمزيا في معالجة الظواهر الكونية و في التعبير عن التجربة الروحية التي يمارسها العارفون من أهل التصوف.

ففي رأي الصوفي أن ظواهر الأشياء انعكاسات لبواطنها و أقنعة لجواهرها، و لا يخترق تلك الأقنعة سوى البصيرة الثاقبة التي يغذيها الذوق و الإلهام، أما التجربة الصوفية فتدفع الشاعر إلى الالتجاء إلى الرموز فيستعين بالكلمات التي تومئ بصورة غير مباشرة و غير واضحة إلى المعنى المقصود، لأن التجربة الصوفية بحد ذاتها غامضة لا يمكن التعبير عنها تعبيرا صافيا مباشرا، فالرموز هي أطوع للشاعر من الكلمات الجامدة ذات المدلول المحدود المعين للتعبير عن تلك النفحات التي تهب على قلبه فتدركها بصيرته و لا يستوعبها عقله. و كل تلك الأحوال تضي على الصوفي

وشاحا من الغرابة و الغموض و تطبعه بطابع رمزي فريد، حتى يخيل للقارئ أنه إزاء تعبير لا يألفه الذوق الفني لأنه مستغلق على من لم يألفه.

فالشاعر الصوفي يؤلف حلقة وصل بين عالم الصوفيين الباطني المغلق و العالم المادي و ظواهره المحسوسة ، لذا فشعره يتأرجح في معانيه بين عالم الروح و عالم المادة، و قد جاء هذا البحث للنظر إلى تلك المعاني الضمنية في الخطاب الصوفي و الإجراءات التي ينبغي على المتلقي القيام بها إزاء عملية التأويل و ذلك باتباع المنهج التداولي .

فالشاعر الصوفي يؤول ما يشاهده و يحسه في العالم المادي تأويلا رمزيا صوفيا ينسجم مع نزعتة الروحية ، فنفس الشاعر الصوفي تتأثر بما حولها تأثرا يختلف عن تأثر النفس العادية و إذا فهي تفهمه فهما خاصا و تؤوله تأويلا رمزيا و تخرج منه معنى ملائما للأفكار التي تسيطر عليها و الخطرات التي تتردد فيها. ثم هي تعبر عن مبلغ تأثرها بهذا المعنى و عن ملاءمتها لهذه الأفكار و الخطرات تعبيرا يدل على ما يعرض لها من وجد و غيبة و دهش و اضطراب ، و من رؤية الأشياء بغير العين التي ترى و سماعها بغير الأذن التي تسمع و فهمها بغير العقل الذي يدرك، ذلك أنه يرى بعينه المتفردة مظاهر الكون و الموجودات و كأنها انعكاسات لجمال الله و ذاته.

2. نظام التشفير في الخطاب الصوفي

1.2 الرموز الصوفية احتكار للمعاني:

إن المباشرة في التعبير عن مكنونات النفس لم يعد لها مكان في الخطاب الشعري الصوفي الذي أصبح ينطوي على ميزاته الخاصة بحيث يجعل خباياه النفسية مكنونة في رموزه و كناياته، فكانت لغتهم لغة تكشف عن خباياهم بطريقة شديدة الخصوصية "بقدره مدهشة يمتلكها الشاعر وحده تحفظ لغته الشعرية ذلك النور من التلاشي، و تنطق بالمعنى و تمنح الشيء وجوده الحقيقي و بهذه الاستجابة لا يدرك الشاعر الشيء كما هو في الواقع بل يرى وراء ظاهره باطنه".¹

و ما نشأ عن تلك اللغة الرمزية هو تلك الفضاءات الإيحائية التي يجد فيها المتلقي نفسه تائها في غياب استراتيجية تأويلية واضحة المعالم فالرمز "كثيرا ما نجد فيه تحررا من القيود اللفظية و الأسلوبية ، لذا فالتحكم في الدلالة المقصودة عن طريق الرمز أمر صعب".² فالخطاب الشعري الصوفي ذو ترف فني خاص منفلت من الزخرفة البلاغية و الهرجة البديعية ، فلم تكن لغته روتينية بقدر ما شكلت عالما غير معهود عن طريق تعالق مكنوناتها و أسرارها في اللامرئي من جهة و اعتمادها التلويع و الإشارة من جهة أخرى. فهو مرتبط بالقوة بتلك الحوادث الغريبة التي يلاقيها الصوفي و يعيشها مما يجعل عملية تلقيه لا تعدو أن تكون جزءاً من تلك الآفاق الروحانية التي أنتجت ذلك الخطاب الصوفي المتفرد، فهو لا يطلع المتلقي إلا على النزر القليل و يترك الباقي طي الكتمان ، فيتم بذلك التعامل مع الخطاب الصوفي باعتباره بنية ديناميكية لا كصنم أصم مغلق.

إنه "من المحال ترجمة الرمز، و نثر كل معطياته، و من العسير القول عن رمز من الرموز أنه كذا و كذا فحسب و إلا لما كان موحيا؛ إذ للطاقة الإيحائية الموجودة فيه بقصد الرمز ذاته ، و في هذا تكمن قيمته و أهميته، فالرمز هو قبل كل شيء معنى خفي و إيحاء. بل إن التركيب اللفظي إنما هو رمز أدبي يستلزم مستويين:

- مستوى الصور الحسية التي يتخذها الرمز قالباً له.

- مستوى الحالات المعنوية التي يرمز إليها بهذه الصور الحسية .

و الأساس في تكوين الرمز الصلة القوية و المتينة التي تربط بين الصور الحسية و الحالات المعنوية المرموز إليها. بحيث يكون الرمز مثيرا و باعثا للحالات المعنوية ، ليس بمعنى أن تكون هذه العلاقة معتمدة على وجه الشبه بين الرمز و المرموز ضرورة ، إذ ينبغي ألا ننسى أن المرموز حالة تجريدية لا شيئا حسيا ، بل إن هذه الصلة و العلاقة

إنما هي علاقة ذاتية بين الذات والأشياء لا بين الأشياء وبعضها الآخر. تعتمد على الحدس والشعور بما يجعل للرمز قيمة إيحائية لا يتحدد فيها المرموز بكل تخومه وهذا ما يميزه عن الإشارة المقيدة بالتسمية والتصريح و محددة المدلول".³ ومن هنا يبدأ مأزق التأويل ويبدأ معه دور المتلقي الإيجابي في خلق العوالم التأويلية.

2.2 الغموض الدلالي ومأزق التلقي:

لقد كان الرمز منذ القدم الوسيلة الأولى للتعبير عما يجول في عقل الإنسان فالهيروغليفية المصرية لم تكن إلا تسجيلا رمزيا فطريا لتلك المعاني، والأبجدية الفينيقية أيضا لم تتعد كونها مجموعة رموز وأدلة، ثم جاءت الأبجدية الحديثة برموز ضيقة الدلالة وترجيع لأصداء النطق اللفظي.⁴ "و الرمز الشعري عود إلى الينبوع الأول للغة في شكلها الأسطوري المفعم بالمجاز، وتسمية للأشياء في كينونتها وعلى ما هي عليه".⁵ فعندما نقول أن الكاتب يقترح أنموذجا أيقونيا، فنحن لا ننوي إصدار حكم مسبق حول إخلاصه، فنحن نقول فقط: إن خطابه -بوصفه عملا أدبيا- يخضع بالمقام الأول إلى شرط القبول الشكلي، كما يفترض بالفعل الأدبي أن يكون مثيرا للاهتمام بذاته، بوصفه موضوعا وليس غاية للاتصال، فهو يقدم بوصفه موضوعا جديرا بالقراءة خارج السياق الذي أنتج فيه، وضمن عدد غير محدد من سياقات التلقي، بغض النظر عن أية شروط تحضيرية أو غيرها من تلك التي تدير نجاح الأفعال الأخرى.⁶ فليس من الصعب العثور في الأدب على كل التجاوزات الممكنة بالمقارنة مع كل القواعد، "الحال أن المتلقي لنص أدبي ما سيكون لديه ميل للبحث في تفسير كل اختراق ممكن بوصفه تضمينا مقصودا، لا بوصفه تجاوزا ظاهريا فحسب. فبينما يبدو المؤلف حرا في تحديد بناء ملفوظه، فإن القارئ هو المطالب بالتعاون بالشكل الأقصى، ينتظر منه أن يتعرف على معلومة بنائية إضافية؛ وكذلك أن يقدم تفسيرات جديدة، وأن يفترض فرضيات، أو مقولات إن أمكن."⁷ فالمتلقي في خطوته الأولى لتأويل الخطاب الصوفي ينبغي عليه النظر إلى كل ما هو ظاهري على أنه جبل جليدي لا يبدو منه إلا الجزء اليسير، بينما تظل المعاني الحقيقية غائرة في الأعماق.

إن إشكالية التلقي في الخطاب الصوفي مردها للخلفية الإيديولوجية التي تحرك القارئ، إضافة إلى افتقاده لآليات التأويل لفك شفرات الخطاب الصوفي، واختلاف الذوق، ما حدا بابن عربي إلى دعوة المتصوفة قائلا: "إن عاشرتهم على ما أنت عليه قاتلوك، فالستر أولى وأيسره أن تكون كائنا بائنا."⁸ فكان ما يقوم به المتصوفة "إعادة التشفير اللغوي في الشعر قديما، عن طريق نزع الدلالات الأولى الحسية والدينيوية لكلمات في اتصالها بمجالات الجنس والخمر وحالات النفس لإدراجها في أنساق رمزية جديدة."⁹ فالتجربة الصوفية على اختلاف درجاتها نجد أنها "استحدثت لنفسها قاموسا لغويا وإن كان يقوم في الأساس على نفس المصطلحات اللغوية الموجودة في العربية إلا أنها توحى بغير المتواضع عليه، وتحمل إشاراتها الخاصة، كما تعبر عن الباطن المتصل بالإلهي والتفسيرات الصوفية للوجود."¹⁰ الأمر الذي فرض على الصوفية سلوك التعظيم والتستر متجاوزين اللغة الشائعة بمفرداتها، ذلك أنهم "قصدوا أن تكون ملغزة ورامزة وبعضها الآخر كان نتيجة لغلبة الحال عليهم، وضيق العبارة بالنسبة لهم وعجز اللغة أن تترجم بدقة لأحوالهم ومواجههم وأذواقهم."¹¹

فالتعامل مع الخطاب الصوفي يجعلنا نلقي نظرة فاحصة على طبيعة اللغة الصوفية، حيث يعتبر المصطلح الصوفي أولى الإشكاليات التي يواجهها متلقي هذا الخطاب ذلك "أن هذه الطائفة اصطلحت على ألفاظ في علومها تعارفوا بينهم ورمزوا بها، فأدركه صاحبه وخفي على السامع الذي لم يحل مقامه، فإما أن يحسن ظنه بالقائل فيقبله و يرجع إلى نفسه فيحكم عليه بقصور فهمه عنه، أو يسود ظنه به فيهوس قائله وينسبه إلى الهذيان، وهذا أسلم من رد حق وإنكاره."¹² فقد عمدوا إلى استعمال "لغة خاصة في التعبير عن مواجيدهم هي لغة التصوف الإسلامي، إذ يعتبر التصوف جانبا منها، فقد كان للصوفية مصطلحهم الصوفي ولكنه ليس سوى جزء من اللغة الصوفية التي

تتضمن المصطلح و الشطح و الحرف و الحكمة ، و التفسير و لا نكاد نجد نفس اليسر في مختلف مناحها إذ أن التعقيد هو سمتها الأساسية.¹³

و هذا الإفراط في الرمزية و الغموض لدى الشعراء الصوفيين خلق عجزا في سيرورة التلقي و القراءة التأويلية فنجد "هذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانهم لأنفسهم، و الاجتماع و الستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستهمة على الاجانب."¹⁴ فقد وضعوا لغة خاصة بهم تواضعوا عليها شأنهم في ذلك شأن العلوم الأخرى ، فلكل علم مصطلحاته الخاصة، إلا أن الرموز الصوفية متميزة بطابعها التخيلي حيث لا يمكن تخيل رمز دون خيال فهو مرتبط به ارتباطا وثيقا ، الخيال هو الذي ينقل الصوفي من الواقع إلى حضرة الذات الإلهية .

3. الدلالات السياقية و فعل التلقي:

1.3 النشاط التأويلي ضرورة في الخطاب الصوفي:

يقوم النشاط التأويلي على أساس الوضع داخل السياق ، فهو يرجع الفقرة المعتبرة ، حتى ولو كانت جد مختصرة (يمكن أن تكون كلمة) إلى محيطها ، حسب مناطق المحلية (مركب، حقة) ذات الحجم المتطور ، كما يرجعها إلى فقرات أخرى من النص نفسه ، ويتم استدعاؤها بإجراءات المماثلة أو التباين . و أخيرا يربط النشاط التأويلي الفقرة بفقرات أخرى منتمية إلى نصوص أخرى ، مختارة من داخل المرجع ، و هي النصوص التي تدخل ضمن متن العمل.¹⁵ حيث لا يمكن تأويل جزء من الخطاب منفصلا بل يجب سياقيا ربطه ببقية أجزاء الخطاب ، مثل قول ابن عربي:

فَإِنْ بِهَا مَنْ قَدْ عَلِمْتُ، وَمَنْ لَهُمْ صِيَامِي وَحَيِّي وَاعْتِمَارِي وَ مَوْسِمِي¹⁶

إن المكان الذي يتحدث عنه ابن عربي حين قال "بها" لا يمكن أن يتحدد إلا بالعودة إلى السياق النصي، فنجد المعنى لا يكتمل إلا به، حيث يقول:

خَلِيلِيَّ عُوَجًا بِالْكَثِيبِ، وَعَرَجًا عَلَى لَعْلَعٍ، وَاطْلُبْ مِيَاءَ يَلْمَلَمِ¹⁷

فندرك من خلال ذلك أن المكان الذي يتحدث عنه هو "لعلع" وهو موضع حال دهش و حيرة، و تولع لتقع الرؤية عن محبة و شوق، و اطلب مياه يللمم ، جهة كائنة، أي: رد على موطن الحياة إذ كان من الماء كل شيء حي ، و لما كانت الأنفاس يمنية فلتكن الحياة أيضا من مناسبة هذه الجهة للمشاكلة.¹⁸ لذلك يعتبر النظر إلى السياق من الإجراءات التأويلية الناجعة في قراءة الخطاب الصوفي.

إن البحث في المعنى و الدلالة ، يقتضي دراسة السياقات الخطابية ، و قد اهتمت النظرية السياقية بموضوع المعنى ، و رأت أنه يتحدد بالاعتماد على السياق ، فيأخذ الدور الفعال في الإرسال و التلقي معا ، و نقصد بذلك أن السياق في اللغة يكتسب قيمة كبرى إذ لا تتحدد معاني العبارات إلا من خلاله منها المثال التالي : تفضل بالجلوس على مقعد عصير التفاح. فهذه الجملة – منعزلة -لا تحمل أي معنى إطلاقا، بما أن عبارة (مقعد عصير التفاح) لا تدخل في الأسلوب المتواضع عليه بصدد الإحالة على أي نوع من الأشياء. إلا أن لهذه الجملة معنى تاما في السياق الذي قيلت فيه : قضى شخص ليلة عند أصدقاء له و نزل في الصباح لتناول فطوره، كانت مائدة الفطور معدة لأربعة مدعوين ، و عليها ثلاثة كؤوس عصير ليمون و كأس عصير تفاح ، هنا تتوضح عبارة (مقعد عصير التفاح) و انسحاب هذه العبارة على ذلك المقعد يصبح أمرا بديهيا في الصباح التالي حيث لا يوجد عصير تفاح على المائدة : فالمقعد أصبح معروفا عن طريق هذه التسمية.

و بالإضافة إلى الجمل التي ليست لها دلالة خارج السياق ، هناك حالات قد نفيد فيها جملة أشياء مختلفة بالنسبة لأشخاص مختلفين. لننظر إلى الجملة التالية:

_ نحتاج إلى مصادر جديدة للطاقة.

إن ما تفيد هذه الجملة ، بالنسبة للمدير العام لشركة " شيل " النفطية ، يختلف كثيرا عما تعنيه بالنسبة لرئيس منظمة (أصدقاء الأرض) فالدلالة لا توجد بصورة مباشرة في الجملة: إنها غير مستقلة، بالنسبة للكثيرين ، عن الذي تلفظ بجملة أو سمعها، و عن قناعاته الاجتماعية و السياسية.¹⁹ كما يؤكد عبد القاهر الجرجاني أن المعنى هو كل شيء ، وأن اللفظ بمعنى الجرس و الصوت لا قيمة له " و إن كانت هناك قيمة فلما يحمل من معنى هذا السؤال في الشكل الذي وصفناه به يتجه إلى ناحيتين: الأولى اللفظ في جرسه و صوته ووقعه على الأذن ، و تأليف حروفه ، و عدم المنافرة فيها ، و الثانية اللفظ في دلالاته على المعنى الذي يحمله بالفعل أو القوة على حد تعبير المناطقة، و نقصد بالقوة ما يمكن أن يخرج به اللفظ إلى المعاني الأخرى التي يتحملها عن طريق الاستعارة و المجاز."²⁰

وفي مجال توضيح علاقة المعنى بالسياق تجدر الإشارة إلى أن العناصر السياقية هي عناصر شكلية تتمرأى لنا عبر أقسام الكلام، أي عبر الأفعال و الأسماء و الأدوات ففي قولنا مثلا "السيارة تنهب الأرض نهبا" نعتبر أولا بأول ، أن العناصر الألسنية التي تسبق فعل "تهب" و تلحق به هي التي تشكل سياق هذا الفعل و تحدد معناه في هذه الجملة ، من هنا كان الرأي أن كل تغيير نحوي في تركيب الجملة يؤدي إلى تغيير المحتوى، ففي التعبير الأول يشير إلى السرعة أما في الثاني على السرقة الشاملة.

هذا التغيير في المعنى هو الذي دفع علماء اللغة إلى القول إن الكلمة لا معنى مستقلا لها و إنما لها معاني تتغير بتغير السياقات التي ترد فيها.²¹ كما في قول ابن عربي:

نَادَيْتُ خَلْفَ رِكَابِهِمْ مِنْ حَيْهَمُ: يَا مَنْ غَنَاهُ الْحُسْنُ هَا أَنَا مُفْلِسٌ²²

إن لفظ مفلس قد تدل في السياق الاعتيادي على عدم امتلاك النقود، لكن هذا المعنى بلا شك سيختلف في سياق الخطاب الصوفي حيث يقصد ابن عربي بالمفلس الذي فقد كل قوى الشباب، حيث يقول: " لما رحلت قوى الشباب و ملذذات البداية في الفترة و الحيرة و الهمم تزج و المركب غير مساعد بقيت في صورة المفلس الذي يرى أطياب الملذذات و يدخل سوق النعيم و الشهوات و ماله درهم يصل به إلى نيل شهوة من شهواته."²³ أما في مجال توضيح علاقة المعنى بالمقام فتجدر الملاحظة إلى أن معظم الألسنيين يأخذون بأهمية المقام أو ظروف القول في تحديد المضمون الدلالي للكلمات ، فالمقام هو الذي يساعدنا تبيان العلاقة بين الكلام و ما يومئ إليه في الواقع ، و المقام هو الذي يوضح العلاقة بين مرسل الكلام و متلقيه و توضيح العلاقة بين المعنى و السياق تبتدئ بشكل أوضح إذا ما ذهبنا مذهب "بريتو L.preito" في تقسيم المعنى إلى قسمين :

- المعنى الذي يتكون من النص أو المرسل أساسا،
- و المعنى الذي ينشأ عن معرفتنا بالظروف التي ألف فيها النص ، أو قيلت فيه المرسل ، ففي قولنا مثلا: "كان الحصان يقفز في البرية" يتحصل معنى هذا القول من القول نفسه ، أما في قولنا "سأتي للعشاء عندك السبت المقبل" فمعنى القول هنا لا يتحصل من القول نفسه، و لابد لنا للامسك به و جلائه ، أن نعرف هوية الذي سيأتي و نتحرى زمن الموعد برجعنا إلى سياق القول و ظروف وروده.²⁴

و قد ذهب بعض الدارسين إلى أن المعنى الحرفي الخالص غير موجود، أو على كل حال أن "المعنى الحرفي نفسه لا يختص بمحايلته للغة بطريقة داخلية ، و لكن كل معنى يشتغل أيضا على أساس الروابط الخارجية مع العالم، هذه الروابط و الافتراضات "المعطيات الخلفية المشتركة" باصطلاح "سورل Seurl" ، هي من الكثرة و التعقيد بحيث لا نعي بها في العموم، و يكون من العبث إقامة تصور شامل لها."²⁵

مَنْ ظَلَّ فِي عِبْرَاتِهِ غَرْقًا وَفِي نَارِ الْأَسَى حَرْقًا وَلَا يَتَنَفَّسُ²⁶

فلا يمكن في هذا الخطاب الشعري أن نأخذ بالمعنى الحرفي ، حيث يصبح الأمر مناقضا للواقع و منافيا للمنطق فيستحيل أن يغرق الشخص في عبراته ، أو يغرق في نار الحزن و يختنق فيها، و في تأويله يقول ابن عربي: " إن حالته مترددة بين عبرته و زفرته، فكأن بالعبرة من الاعتبار الذي هو الجواز عن حالة النجاة له إلى الهلاك فيه وهو الغرق. وكأن بالزفرة عن نار الأسى."²⁷ لذلك يعتبر الخطاب الصوفي خطابا ضمنيا إلى حد بعيد و يتم التعامل معه وفق آليات قرآنية خاصة تضمن نيل بعض المقاصد الخطابية.

2.3 تأويل المعاني الضمنية في الخطاب الصوفي:

تداوليا يستعمل مصطلح المعنى الضمني implicature للحديث عما يمكن أن يضمه أو يوحي به أو يعنيه المتكلم فوق ما يصرح به ظاهر كلامه ، و في ذلك يقول فرناند هالين fernand haline معبرا عن إمكانية ابتعاد اللغة عن المقاصد الحقيقية للتلفظ: "اللغة التي خدمتني في التعبير عن مقصدي، عن رغبتني ، عما أوصي به، عن رأيي، هذه اللغة التي أدت مهمتها، سرعان ما تتلاشى بمجرد وصولها. لقد أطلقها كيما تنعدم ، كيما تتحول جذريا إلى شيء آخر في أذهانكم ، و سوف أدرك أنني فهمت هذه الواقعة المتميزة التي تفيد بأن خطابي لم يعد موجودا: لقد حل معناه محله بشكل كلي ، أي لقد حلت صور ، نوازع، ردود أفعال، أو أفعال تعود لكم، محله... يترتب على ذلك أن كمال هذا النوع من اللغة –التي تتمثل غايتها الوحيدة بكونها مفهومة- يكمن بشكل واضح في السهولة التي تتحول بها إلى شيء آخر تماما."²⁸ مثال ذلك قول ابن عربي:

فَإِذَا وَقَفْتُ عَلَى مَعَالِمِ حَاجِرٍ وَقَطَعْتُ أَعْوَارًا بِهَا وَجِبَالًا
قَرَّبْتُ مَنَازِلِهِمْ، وَلَا حَتَّ نَارُهُمْ نَارًا قَدْ أَشْعَلَتْ الْهَوَى إِشْعَالًا²⁹

حيث يتجاوز المعنى الظاهري للفظ النار في معناه الحقيقي عند المتلقي إلى معنى صوفي حيث تدل على المكاره التي اقتحموها حتى أوصلتهم إلى هذه المنازل العلية، فإن الجنة حفت بالمكاره، و يقول: أضمرت في القلب نار الحب لنيل هذا المقام ليكون تأييدا له و قوة على اقتحام الشدائد في نيل المطلوب الذي تعلق به قلبه.³⁰ فالملفوظ وسيلة اصطلاحية لإيصال مقصد متضمن في القول يتجاوز المحتوى الخام له، لكنه يشكل قاعدة ضرورية لا غنى عنها، غير اتفافية للدلالة على ذلك الغرض ، بهذا المعنى يتعلق الأمر باشتراك في التلفظ بإنشاء الباث والمتقبل دلالة في الوقت ذاته على أساس المواضعات و المعطيات السياقية و الخلفية المعرفية المشتركة.³¹

و المعاني الضمنية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمقاصد التي ينوي المتكلم إيصالها إلى المتلقي وهذا ما تحدث عنه براون ويول: "ومن المفيد التأكيد أن المعاني الضمنية هي جوانب مقاصدية من المعنى المباشر للقول حسب استعماله في سياق محدد مشترك بين المتكلم والمخاطب، وتعتمد على التزام المتكلم والمخاطب بالمبدأ التعاوني وضوابطه."³² وقد كتب ابن عربي ديوانه ترجمان الأشواق في الغزل و يشكل البكاء على الأطلال ثلثه ، فجعل كل اختلاجاته العرفانية بلسان الغزل الذي لا يجد المتلقي في تقبله أقل عائق ، فتبنى بذلك علاقة تأويلية بين الغزل في ارتباطه بعشق المحبوب و التعلق به و بين حب الله و الفناء فيه و تلك المعاني الضمنية قد تكون مجرد تأويلات بسبب صعوبة الإمام بمقاصد المتكلم : لكن يقل ذلك بالعودة إلى السياق وتكون إمكانية وجود التأويل الصحيح كبيرة نوعا ما.

لذلك نجده يصرح بأن المعاني الحقيقية رغم شروحه لا تزال مغيبة و كل الألفاظ لازالت تحت وطأة سيرورات التأويل فيقول: " وعليه بأن أصحابنا من أهل هذا الشأن يعرفون ما أشرنا إليه في هذا الإيماء و الإجمال أغنانا عن التفصيل و التصريح و علم الله ما قيدت هذا القدر في هذا البيت إلا و الحى تنفضني من باطني مما أجد من قوة الوارد و ازدحام تموج المعارف فيه ولا أقدر على إذاعة ما أجده مع القوة التي أعطاني الله على التعبير عنه و إيصاله

إلى الأفهام القاصري فأحرى ما فوقها من الأفهام، ولكن الغيرة الإلهية و حجاب العزة الأحمى المنصوب بين عينيه منع من ذلك وهذه لفتة مصدر." ³³

إن لجوء ابن عربي إلى الغزل و مناجاة الحبيبة و التوسل لها بالبقاء آية من آليات إضمار حقائق الصوفية كما في قصيدة لا عزاء ولا صبر نجده يقول:

بَانَ الْعَزَاءُ، وَبَانَ الصَّبْرُ إِذْ بَانُوا بَانُوا وَهُمْ فِي سُودَا الْقَلْبِ سُكَّانُ
سَأَلْتُهُمْ عَنِ مَقِيلِ الرَّكْبِ، قِيلَ لَنَا مَقِيلُهُمْ حَيْثُ بَانَ الشَّيْخُ وَ الْبَانُ
فَقُلْتُ لِلرَّيْحِ: سِيرِي، وَالْحَقِّي بِهِمْ فَإِنَّهُمْ عِنْدَ ظِلِّ الْأَيْكِ قُطَّانُ
وَيَلْغِيهِمْ سَلَامًا مِنْ أَخِي شَجْنِي فِي قَلْبِهِ مِنْ فِرَاقِ الْقَوْمِ أَشْجَانُ ³⁴

يبدو العاشق المتيم معذبا حزينا لرحيل أحبته بعد أن كان القلب مكانهم ،فهاهو يسأل عن ديارهم فقيل له أن مقيلهم حيث الشيخ و البان ، فتوسل الريح للحاق بهم فهم مقيمون عند ظلال شجر الأيك، و طلب منها أن تبلغهم سلامه و أشجانه و أحزانه من فراقهم. هذه هي المعاني الصريحة الظاهرة و لاشك أنها ليست هي المقصودة فيصبح الأحبة هم المناظر الإلهية حيث يقول: "لما كانت المناظر الإلهية لا تشبه لها إلا بالمنظور إليه و هو الله سبحانه في سويدا القلب، كما يليق بجلاله من قوله تعالى (ما و سعي أرضي و لا سمائي ووسعي قلب عبدي المؤمن) فهو في قلب العبد، لكنه لما لم يعط تجل في هذه الحالة لم توجد المناظر فبان من كونها مناظره مع كونه في القلب. و يقال: عز الأمر إذا امتنع فلم يوصل إليه . و الصبر حبس النفس عن الشكوى." ³⁵

لكن هل هذا يكفي للقول بأنه فعلا المعنى المقصود؟ إن تأويل ابن عربي لتلك الأبيات لا يخرج عن كونه تأويلا من بين عدة تأويلات ممكنة حيث أنه في ديوانه يؤول القصيدة الواحدة عدة تأويلات، الأمر الذي يجعل تلقي الخطاب الصوفي ديناميكيا متعدد الرؤى، و إذا كان المتلقي سيكتفي بما جاء في شروحات ابن عربي فإن قراءته ستتسم بالسلبية و النمطية و يصبح معها الخطاب حيزا مغلقا يحوي عددا محددًا من المعاني، فيبتعد بذلك الخطاب عن سمته الأساسية وهي الانفتاح على القراءة و التأويل.

"فالكتابة لا تتحقق إلا لأنها تحمل داخلها إمكانية القراءة، و العكس صحيح أيضا فالقارئ لا يستطيع أن يملأ بالمعنى المحدد إلا العمل الذي لا يكون محددًا تحديدا مطلقا." ³⁶ فقضية التعبير اللغوي من أبرز القضايا ارتباطا بالفهم و القصدي ما يعد أساسا في النظرية الهرمينوطيقية لارتباطها الوثيق بالمعنى خاصة في التعريفات اللغوية: "عنيت فلانا عنيا قصده، و من تعني بقولك أب من تقصد... و معنى كل كلام و معنيته: مقصده." ³⁷ من هنا تظهر العلاقة بين المعنى و القصد ، حيث ينبي المعنى على ما يقصده المخاطب أو ما يحمله الخطاب من معاني تلميحية كانت أو تصريحية.

و هذا ما أكده "الشاطبي" الذي عقد فصلا تحت عنوان المعاني هي المقصودة... و منها: أن يكون الاعتناء بالمعاني المبنوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، و إنما أصلحت الألفاظ لأجلها، و هذا الأصل معلوم عند أهل العربية ، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد ، و المعنى هو المقصود. ³⁸ إلا أنه يبدو من غير الممكن معرفة المقاصد الحقيقية للمخاطب ذلك أن التأويل يكون متمحورا أساسا على ما يبثه في الخطاب من معان ضمنية أو صريحة من خلال استعماله للكلمات: أي أن المعاني التي تتشكل في ذهن القارئ من خلال تحليله السطحي أو العميق للخطاب يشكل جزءا من مقاصد الخطاب ، و إن كانت بعيدة عن مقاصد المخاطب- التي تبدو مع هذا الخلط التأويلي - صعبة التحقيق على الصعيد المقاصدي. و تتحقق فرضياتنا في الخطاب الشعري الصوفي حيث يتأتى للقارئ معرفة المقاصد السطحية للخطاب و قد يرفع الستار عن مقاصد

عميقة/ضمنية لكنها لا ترقى لمستوى المقاصد الصوفية البحتة. فيكون حريا بالقارئ الذهاب إلى ما هو أعمق من العميق إذا ما تعلق الأمر بالمعاني الصوفية . كما في قول ابن عربي :

سَلَامٌ عَلَى سَلَمَى وَمَنْ حَلَّ بِالْجَمَى وَحَقُّ لِمَثَلِي ، رِقَّةٌ أَنْ يُسَلِمَا
وَمَاذَا عَلِمَـا أَنْ تَرُدَّ تَجِيَّةً عَلَيْنَا؟ وَلَكِنْ لَا اخْتِكَامَ عَلَى الدُّمَى
سَرَوَا وَظِلَامُ اللَّيْلِ أَرْخَى سُدُولَهُ فَقُلْتُ لَهَا: صَبَّأً غَرِيبًا مُتَيَّمَا
أَحَاطَتْ بِهِ الْأَشْوَاقُ صَوْنًا، وَأَرْصَدَتْ لَهُ رَاشِقَاتِ النَّبْلِ أَيَّانَ يَمَّمَا
فَأَبَدَتْ ثَنَائِيهَا، وَأَوْمَضَ بَارِقٌ فَلَمْ أُذْرِمَنَّ شَقَّ الْحَنَادِسِ مِنْهُمَا
فَقَالَتْ: أَمَّا يَكْفِيهِ أَنِّي بِقَلْبِهِ يُشَاهِدُنِي فِي كُلِّ وَقْتٍ أَمَا أَمَّا؟³⁹

فلفظ سلمى يبدو ظاهريا أنه اسم امرأة يناديها المخاطب شوقا و حبا ، لكن بدرجة معرفية أولية يمكن للقارئ تطبيق سجله المعرفي حول أفكار الصوفية لمعرفة أن سلمى مجرد رمز صوفي لكن ماهية هذا الرمز ترتبط ارتباطا وثيقا بمقصدية ابن عربي التي يبدو من المستحيل كشفها إلا إذا صرح هو عنها حيث يشير بسلمى إلى حالة سليمان وردت عليه من مقام سليمان عليه السلام ميراثا نبويا.⁴⁰

و على هذا الأساس يتم التعامل مع النص الأدبي باعتباره "خطابا يحمل في طياته وظائف ومقاصد سياقية، فكل ما يوجد في النص يدل بشكل من الأشكال ، ويحيل على أدوار تداولية ومقاصد مباشرة وغير مباشرة ، فليس هناك في النص الأدبي ما هو مجاني وزائد ، بل ترتبط الدلالة بالمعاني السياقية والرسائل الظاهرة والمضمرة".⁴¹

إن هذا التعقيم الدلالي يفرض على المتلقي تجنيد كل الخبرات القرائية المتعلقة بالتصوف للوصول إلى أعلى درجة وعي ممكنة بما هو عليه واقع المصطلحات الصوفية التي لا تمت للتصريح بصلة، فها هو ابن عربي يقول:

وَرَا حَمِيَّ عِنْدَ اسْتِالَمِي أَوَانِسُ أَتَيْنَ إِلَى التِّطَوَافِ مُعْتَجِرَاتُ
حَسْرَنَ عَلَى أَنْوَارِ الشُّمُوسِ، وَقُلْنَ لِي: تَوَرَّعْ، فَمَوْتُ النَّفْسِ فِي الْحَسْرَاتِ
وَ كَمْ قَدْ قَتَلْنَا، بِالْمَحْصَبِ مِنْ مِي نُفُوسًا أَيَّامَاتٍ لَدَى الْجَمَرَاتِ⁴²

حيث يتحدث عن الأوانس المزاحمات دون الإفصاح عن كون الأوانس مجرد لفظ حمل دلالته الخاصة حيث يقول: "وسماهم أوانس لوقوع الأنايس بهن وأنهم لأن اللفظة التي تطلق عليهم تقتضي التأنيث وهو الملائكة والجنة ولهذا جعلهم من جعلهم بنات وإنائا، وقوله معتجرات، أي غير مشهودة له سبحات وجوههم لأنهم غيب لنا لا نراهم".⁴³ "لا توظف لغة النص الأدبي بشكل عشوائي وفوضوي، بل تزخر بمجموعة من الدلالات السياقية والتداولية والحجاجية إقناعا وتأثيرا ، فكل ما في النص يدل ويحيل ويحمل وظائف سياقية متنوعة، سواء أكانت نصية داخلية أم مقامية خارجية".⁴⁴ و من هذا المنطلق كان على القارئ استثمار كل جهده التأويلي واستحضار كل الآليات الممكنة للوصول إلى المقاصد الصوفية.

4. خاتمة:

من خلال هذا البحث تم التوصل إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- لغة الخطاب الصوفي لغة بعيدة عن المباشرة والوضوح فهو لا يطلع المتلقي إلا على النزر القليل ويترك الباقي طي الكتمان ، فيتم بذلك التعامل مع الخطاب الصوفي باعتباره بنية ديناميكية لا كصنم أصم مغلق، وما نشأ عن تلك اللغة الرمزية هو تلك الفضاءات الإيحائية التي يجد فيها المتلقي نفسه تائها في غياب استراتيجية تأويلية واضحة.
- إن متلقي الخطاب الصوفي سيكون لديه ميل للبحث في تفسير كل اختراق ممكن باعتباره تضمينا مقصودا ، لا بوصفه تجاوزا ظاهريا فحسب ذلك أن القارئ هو المطالب بالتعاون بالشكل الأقصى وبذل جهده التأويلي.

- يقوم النشاط التأويلي على أساس الوضع داخل السياق ، حيث لا يمكن تأويل جزء من الخطاب منفصلا بل يجب سياقيا ربطه ببقية أجزاء الخطاب.
- إن المعنى الحرفي الخالص في الخطاب الصوفي غير موجود، النشاط التأويلي يعتبر ضرورة في الخطاب الصوفي ، وكذا فإن تأويل المعاني الضمنية في الخطاب الصوفي يعتمد اعتمادا تاما على الجهد التأويلي للمتلقى.

5. الهوامش:

- 1- أحمد عبد الغفار، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ، دارالمعرفة الجامعية، مصر، 1998، ص 185.
- 2- أحمد عبد الغفار، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ، دارالمعرفة الجامعية، مرجع سابق، ص 185.
- 3- مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية – تأصيل وتجديد ، دارالمعارف، الإسكندرية، 1985، ص 170.
- 4- نور سلمان، معالم الرمزية في الشعر الصوفي، الجامعة الأمريكية، بيروت ، 1954 ، ص 55.
- 5- عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، بيروت ، 1978، ص 120.
- 6- فرناند هالين ، التداولية، ترزياد عز الدين العوف، مجلة الآداب العالمية ،، عدد 56، القاهرة، ص 70.
- 7- فرناند هالين ، التداولية، مرجع سابق، ص 73.
- 8- محي الدين بن عربي: رسائل ابن عربي ،كتاب الفناء في المشاهدة، دار إحياء التراث، ط1، بيروت، ص 3.
- 9- صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب ، ط1، بيروت ، 1995 ، ص 227.
- 10- سحر سامي ، شعرية النص الصوفي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2001، ص 106.
- 11 -محمد عبد المطلب:قراءات أسلوية في الشعر الحديث، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة، 1995، ص 31.
- 12 -محمد بن بركة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان ،دار المتون للنشر والتوزيع ، ط1، 2006، ص 83.
- 13-محمد بن بركة، التصوف الإسلامي من الرمز إلى العرفان ، مرجع سابق، ص 83- 84.
- 14- القشيري، الرسالة القشيرية، تج: عبد الحلیم محمود، دار الكتب الحديثة، ط1، 1966، ص 200.
- 15 -ينظر:فرانسوا راستي، فنون النص وعلومه، تر: إدريس الخطاب، دار توبقال للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 125.
- 16 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق، دارالمعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، 2005، بيروت ، لبنان، ص 35.
- 17 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق، ص 35.
- 18 -ينظر: ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 35.
- 19- جورج لايكوف ، مارك جونسن، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر والتوزيع، ط2، 2009، ص 31.
- 20 -محمد عبد المنعم خفاجي، محمد السعدى فرهود، عبد العزيز شرف، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية ، ط1، 1992، ص 39.
- 21- ينظر: موريس أبو ناضر، إشارات اللغة ودلالة الكلام، ط1، كانون الثاني، 1990، بيروت ، ص 58.
- 22- ابن عربي، ترجمان الأشواق، مرجع سابق، ص 52.
- 23 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ،ص 52.
- 24 -موريس أبو ناضر، إشارات اللغة ودلالة الكلام، مرجع سابق، ص 58- 59.
- 25- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر العباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2007، سوريا، ص 82.
- 26 -ابن عربي، ترجمان الأشواق، مرجع سابق، ص 53.
- 27 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 53.
- 28 -فرناند هالين، ترزياد عز الدين العوف ، التداولية، ترزياد عز الدين العوف، مجلة الآداب العالمية ، عدد 56 القاهرة، ص 43.
- 29- ابن عربي، ترجمان الأشواق، مرجع سابق، ص 94.
- 30 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 95.

-
- 31- ينظر: ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص141 .
- 32 -براون ويول، تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطي –منير التريكي، النشر العلمي والمطابع، ط1 ، جامعة الملك سعود، 1997، ص 42.
- 33 -ابن عربي، ترجمان الأشواق، مرجع سابق، ص 68.
- 34 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 47-48.
- 35- ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 47.
- 36 -وليم راي، من الظاهراتية إلى التفكيكية ، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار المأمون للترجمة والنشر، ط1، دار الحرية ، بغداد ، ص 25.
- 37 -ابن عربي ، ترجمان الأشواق، مرجع سابق، ص 152.
- 38 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 41.
- 39-ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 45.
- 40 -ينظر: ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص53.
- 41 -جميل حمداوي، التداوليات و تحليل الخطاب، مكتبة المثقف، ط1، 2015، ص 14.
- 42 -ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق، ص 49.
- 43-ابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق ، مرجع سابق ، ص 57.
- 44 -جميل حمداوي، التداوليات و تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 16.

*** *** ***